



أثر الفاعلين من غير الدول على الاستقرار الإقليمي بالشرق الأوسط

الباحث: محمد عيد كامل نصر

أثر الفاعلين من غير الدول على الاستقرار الإقليمي بالشرق الأوسط

الباحث: محمد عيد كامل نصر

في ظل تقدم تكنولوجيا التسليح وتعزيز الأدوات العسكرية، باتت الدول أكثر اضطراباً إلى التوصل إلى أدوات مستحدثة للصراع تنأى بها عن الانخراط في صدام مباشر قد يؤدي إلى نشوب حروب مدمرة لكلا طرفي الصراع. ويعد تعزيز دور الفاعلين من غير الدول أحد النتائج المترتبة على هذا الاضطراب.

وتتنوع أنواع الفاعلين من غير الدول بين منظمات عابرة للحدود، أو شركات متعددة الجنسيات؛ إلا أن الفاعلين المسلحين من غير الدول باتوا الأكثر تأثيراً في إقليم الشرق الأوسط، منذ السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م، وما ترتب عليه من تطورات. لقد أدى تعاظم الأدوار الخاصة بهذا النوع من الفاعلين من غير الدول إلى تحويل الاهتمام الدولي إلى هؤلاء الفاعلين فاق تأثيرهم تأثير العديد من الأدوات المشروعة والمباشرة لدول الإقليم.

وتسعى هذه الدراسة إلى تتبع دور الفاعلين المسلحين من غير الدول والآثار المترتبة عليه، وإذا ما كان هذا الدور يؤدي إلى مزيد من عدم الاستقرار في إقليم الشرق الأوسط، أو العكس. كما تسعى إلى سبر أغوار الأدوات والوسائل التي يستخدمها الفاعلون المسلحون من غير الدول للتأثير على الإقليم، ودوافع تحقيق أجندتهم الخاصة، وما طبيعة العلاقة التي تربط بين هؤلاء الفاعلين ودول الإقليم.

أهمية الدراسة:

تتمتع هذه الدراسة بأهمية في مجال البحث العلمي للعلوم السياسية، والتي تتجلى في مستويين: الأهمية العلمية: حظيت دراسة الفاعلين من غير الدول باهتمام ملحوظ في الأوساط العلمية، إلا أن هذا الاهتمام لم يكن كافياً لإثراء المكتبة العربية، على الرغم من تأثير هذه الظاهرة على كامل دول الإقليم. وبالتالي فإن هذه الدراسة تسعى إلى المساهمة في تعميق الفهم في ذا الشأن، علة نحو يمكن البناء عليه والإضافة إليه.

الأهمية العملية: يمثل الفاعلون المسلحون من غير الدول إحدى الظواهر السياسية ذات التأثير المتعاظم في إقليم الشرق الأوسط والمنطقة العربية وهو ما يضيف عليها مزيداً من الأهمية. كما تمنح الفترة الزمنية التي تركز عليها الدراسة أهمية إضافية: نظراً لتصاعد تأثير الظاهرة بعد السابع من أكتوبر ٢٠٢٣.

إشكالية الدراسة:

تسبب تعاظم ظاهرة الفاعلين المسلحين من غير الدول بالشرق الأوسط في ظهور منظورين متعارضين. يتمحور المنظور الأول حول الادعاء بأن هذه الظاهرة تؤدي إلى مزيد من عدم الاستقرار

بالإقليم. ويتكئ هذا الادعاء على العديد من المسوغات المنطقية التي يسوقها لتدعيم وجهة نظره. يرى أصحاب هذا المنظور من الباحثين والعلماء أن مثل هذه الظاهرة تخل بأحد المبادئ الأساسية التي بني عليها استقرار النظام الدولي وهو: احتكار الدول لامتلاك السلاح والقوة الغاشمة. وهو ما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى فوضى إقليمية قد لا يمكن التحكم فيها.

بينما يرى الفريق الآخر أن مثل هذه الظاهرة قد تؤدي إلى تخفيف حدة عدم الاستقرار بالإقليم. حيث يرى أن مثل هذه التنظيمات تمكن الدول من تفادي الصدام المباشر فيما بينها، عبر آليات غير مباشرة للصراع. كما يزعم هذا الفريق أن الفاعلين المسلحين من غير الدول يمثلون أداة فعالة في مواجهة القوى المنفلتة إقليمياً بلا أي رادع، معللين ذلك بعدم إمكانية مواجهتها بشكل مباشر، بسبب عدم التكافؤ في موازين القوى العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية.

من هذا المنطلق؛ تسعى هذه الدراسة إلى التحقق من مدى صحة أي من الادعائين من عدمه، عبر تتبع الخطوات العلمية اللازمة للوصول إلى رؤية سليمة فيما يتعلق بالهدف الرئيسي للدراسة، الذي يتمثل في استكشاف مدى العلاقة بين ظاهرة الفاعلين المسلحين من غير الدول والاستقرار الإقليمي في الشرق الأوسط. وهو ما يفرض التساؤل الرئيسي للدراسة:

كيف أثر الفاعلون المسلحون من غير الدول على الاستقرار الإقليمي في الشرق الأوسط منذ ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م؟

ويتفرع منه عدد من التساؤلات الأخرى التي تتوزع على محاور أربعة، لتمكن الباحث من الإجابة على السؤال الرئيسي للدراسة وهي كالتالي:

- ما أهم الفاعلين المسلحين من غير الدول المنخرطين في الصراع الذي اندلع بعد السابع من أكتوبر ٢٠٢٣؟
- ما العوامل التي تساعد الفاعلين المسلحين من غير الدول على تحقيق الأهداف الخاصة بهم؟
- ما أهداف وسياسات الفاعلين المسلحين من غير الدول؟
- ما مستقبل ظاهرة الفاعلين المسلحين من غير الدول في إقليم الشرق الأوسط؟

أولاً: الفاعلون من غير الدول المنخرطون في الصراع:

يمكن تقسيم الفاعلين المسلحين من غير الدول، من حيث التركيب، إلى نوعين: هرمي (هيراركي) يمتاز بالتماسك والمركزية، وآخر شبكي (أفقي) يمتاز بالمرونة والقدرة على المناورة. كما يمكن تصنيفهم على نوعين: نوع تعترف به الحكومات ويمارس أنشطته بدعم منها، وآخر تعدد غير شرعي وربما تصارعه وتسعى للقضاء عليه. ويظهر في إقليم الشرق الأوسط العديد من هؤلاء الفاعلين. غير أن هذه الدراسة سوف تركز على أربع فصائل منها؛ نظرا لانخراطها المباشر في الصراع الذي الدائر بالمنطقة، منذ السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ م، وهي:

- الفصائل الفلسطينية، التي تشتبك مع إسرائيل في غزة والضفة الغربية بشكل رئيسي.
- حزب الله اللبناني، الذي فتح جبهة اشتباك مع إسرائيل ضمن ما تسمى جبهات الإسناد.
- جماعة أنصار الله الحوثية، التي فتحت بدورها جبهة أخرى للضغط على إسرائيل من جهة مضيق باب المندب.
- الفصائل العراقية، التي تستهدف بين الحين والآخر، بالصواريخ والمسيرات، إسرائيل أو حتى المصالح الأمريكية في كل من العراق وسوريا للضغط على أهم حلفاء إسرائيل وداعميها.

١. الفصائل الفلسطينية:

تحظى الفصائل الفلسطينية باهتمام إقليمي وعالمي؛ نظرا لكونها المعني الأول بهذا الصراع. وقد مثل الهجوم غير المسبوق الذي شنته هذه الفصائل على إسرائيل يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ م، انطلاقا من قطاع غزة شرارة المواجهات العاتية بينها وبين قوات الاحتلال الإسرائيلي، على نحو باتت معه محور اهتمام واسع بحكم ما فرضته بقوة الأمر الواقع.

وتنطلق السردية الخاصة بالفصائل المسلحة الفلسطينية من ادعاء رئيسي تبني عليه شرعية قرارها المغامر في مهاجمة إسرائيل، يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ م، يتمحور حول كون القضية الفلسطينية كادت توشك على التصفية عبر اتفاقيات التطبيع بين الدول العربية وإسرائيل اتفاقات ابراهام، التي تمت برعاية أمريكية. وكان مؤداها الحتمي إنهاء القضية الفلسطينية دون قيام الدولة الفلسطينية تحقيقا لطموحات الشعب الفلسطيني. وهو ما دفع هذه الفصائل إلى اتخاذ خطوة صدامية عالية التكلفة تحقق نوعا من الصدمة على الصعيد الإقليمي والعالمي بحيث تعيد هذه الصدمة القضية الفلسطينية إلى بؤرة الاهتمام العالمي وتزيل عنها آفة التغييب.

٢. حزب الله اللبناني:

يمكن كشف موقف الحزب ودوافعه في الصراع عبر متابعة السردية التي يبني عليها شرعية وجوده، إذ يصف نفسه بأنه قوة مقاومة، منذ لحظة ولادته على الساحة الإقليمية نهايات القرن المنصرم. ويعتبر مقاومة الخطر الإسرائيلي الذي يتربص بلبنان هدفه الرئيسي. ومن هذا المنطلق يبدو جليا

سبب انخراطه في الصراع الدائر منذ السابع من أكتوبر باعتبار جنوب لبنان جبهة إسناد للفصائل الفلسطينية. كما يربط الحزب بين مصيره ومصير الفصائل الفلسطينية باعتبارهما يواجهان خطراً واحداً وينضويان تحت لواء محور واحد هو محور المقاومة أو الممانعة، وهذه السردية هي ما تؤدي إلى صياغة سياسة أطلق عليها وحدة الساحات.

٣. أنصار الله الحوثية:

تسيطر جماعة أنصار الله على مساحة كبيرة من شمال اليمن، منذ أن تمكنت من السيطرة على صنعاء، أواخر ٢٠١٤^(١) وقد نمت قوتها حتى أصبحت تمتلك قدرات عسكرية تؤهلها لمضاهاة الجيوش النظامية. وعلى الرغم من البعد النسبي جغرافياً لمناطق نفوذها عن ساحة الصراع الرئيسية في فلسطين التاريخية ولبنان، إلا أنها انخرطت بشكل كبير ومؤثر في الصراع عبر تمكّنها من إحكام ما يشبه الحصار البحري على الاقتصاد وحركة التجارة المتجهة لإسرائيل انطلاقاً من منطقة باب المندب. كما تخوض غمار هذا الصراع من منطلقات مشابهة للفصائل الأخرى، حيث يتحالفون جميعاً ضمن المحور الكبير الذي تقف إيران كقوة مركزية فيه.

٤. الفصائل العراقية:

ينخرط عدد كبير من الفصائل العراقية المختلفة ضمن الصراع وإن كان بتأثير أقل، بلغ ذروته لحظة استهدافها لقاعدة البرج ٢٢ الأمريكية على الحدود العراقية الأردنية السورية المشتركة، في يناير ٢٠٢٤ م، أسفر عن مقتل ثلاثة مجندين أمريكيين وإصابة آخرين^(٢).

ثانياً: العوامل التي تساعد الفاعلين من غير الدول

يتمتع الفاعلون المسلحون من غير الدول بعدد من العوامل التي تمكّنهم من الاستمرار في ممارسة أدوارهم في سبيل تحقيق الغاية المنشودة لكل فصيل، والتي قد تتقارب تارة أو تتباعد تارة أخرى. وتتنوع هذه العوامل بين عوامل داخلية تنبع من الكوامن الذاتية لكل فصيل، أو عوامل خارجية تمارسها بعض القوى لدعم هذه الفصائل وتمكينها من الاستمرار.

١. العوامل الداخلية:

تتمتع الفصائل المندرجة تحت تصنيف الفاعلين المسلحين من غير الدول بعدد من القدرات الذاتية التي تمنح كل فصيل منها القدرة على المراوغة والبقاء، كما قد تمنحه القدرة النسبية على التحرر من التبعية الكاملة للحلفاء ذوي القوة والتأثير الكبيرين.

أ. في حالة الفصائل الفلسطينية المسلحة وعلى رأسها حركة حماس، فقد تمكنت من خوض المنافسة على الانتخابات التشريعية الفلسطينية، عام ٢٠٠٦ م، وتحقيق فوز مكثف في نهاية

(1) Michael Knights, "The Houthi Takeover of Yemen is 10 years old", *The Washington Institute*, sept 21, 2024

(2) Ken Klippenstein, "American Base In Jordan Where Drone Killed 3 U.S. Troops", *The Intercept*, Feb 6, 2024

المطاف من اكتساب الشرعية النسبية المطلوبة لفرض إرادتها السياسية والعسكرية على قطاع غزة، وهو ما أهلها للاستحواذ على قاعدة جغرافية تمثل مركز الثقل والحاضنة الشعبية لها.^(١) كما سعت الفصائل الفلسطينية إلى بناء قاعدة اقتصادية داخل القطاع وخارجه لتمويل أنشطتها الإدارية والعسكرية وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى ظهور حكومة موازية داخل قطاع غزة تختلف عن تلك التابعة للسلطة الفلسطينية، التي يمثلها الرئيس محمود عباس والمُعترف بها دولياً كممثل للشعب الفلسطيني.

ومن ثم، سعت هذه الفصائل إلى تأسيس وتطوير قواعد للصناعات الحربية والتدريب، تعززت بمرور وقت خاضت خلاله خمس مواجهات عسكرية ضد إسرائيل، أسهمت جميعها في تعزيز خبراتها القتالية وتطوير منظومة التسليح. وقد أظهرت العمليات العسكرية، التي نفذتها يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م، التنوع الملحوظ في ترسانتها العسكرية، ابتداءً من الأسلحة الخفيفة وبنادق القنص وصولاً إلى الصواريخ والمسيرات متوسطة المدى، ومروراً بالعبوات المتفجرة والصواريخ المضادة للدروع^(٢).

ب. أما في حالة حزب الله اللبناني الذي يتمتع، هو والقوى المتحالفة معه، بنفوذ كبير داخل النظام السياسي اللبناني، سواءً كان ذلك داخل السلطة التشريعية أو التنفيذية؛ وبالتالي فإن للحزب قدرة كبيرة على توجيه دفة السياسة اللبنانية من خلال المسؤولين والنواب التابعين له، أو التابعين للقوى المتحالفة معه. كما يتمتع بقدرات اقتصادية تؤهله لتمويل أنشطته السياسية والعسكرية على حد سواء. ولا تقتصر هذه الأنشطة الاقتصادية على الداخل اللبناني الذي يظهر جلياً في عدد من الأمثلة أشهرها مؤسسة القرض الحسن ذات الأهمية الكبرى في الاقتصاد اللبناني، ولكن يتعداها إلى خارج لبنان عبر الأنشطة الاقتصادية في سوريا ومناطق أخرى. بل إن الحزب كثيراً ما يتهم بممارسة أنشطة غير مشروعة من خصومه ومناوئيه^(٣).

أما على صعيد القوة العسكرية للحزب؛ فأحياناً ما يوصف بكونه أكبر مليشيا مسلحة في العالم خاصة أن قدراته العسكرية للحزب بلغت مبلغاً يؤهله لأن يصنف في مرتبة وسطى دون الجيوش النظامية ولكنها تفوق المليشيات المسلحة. وحسب المراقبين، فإنه يتمتع بقرابة ١٠٠ ألف مقاتل وبحاضنة شعبية وطائفية كبيرة تؤهله لتجنيد المزيد. كما تفوق ترسانته الحربية ترسانة الفصائل الفلسطينية. من حيث أنه يمتلك قدرات صاروخية كبيرة بعضها صنع محلياً

^(١) فريق التحرير، "حماس بين السياسة والكفاح، هل تهدد الانتخابات سلاح المقاومة"، الجزيرة نت، ميدان، ٢٠٠٦/١/٢٧.

^(٢) شيرين شريف، "ما هي أسلحة حماس الجديدة التي تمكّنها من المواجهة حتى الآن"، BBC NEWS عربي، ٢٠٢٣/١٢/٢٢.

^(٣) Emanuele Ottolenghi, "How Hezbollah Fundraises Through Crime", *Foundation for Defense of Democracies*, Jul 2,

والبعض الآخر صنع بتكنولوجيا إيرانية. وتشير التقديرات المختلفة إلى امتلاكه لما يفوق ١٥٠ ألف رأس صاروخي ذات مديات مختلفة. ناهيك عن المسيرات التي أثبتت فاعليتها وقدرتها على التخفي من أجهزة الرصد والدفاعات الجوية الإسرائيلية، وبلغت الهجمات التي شنها الحزب بهذه المسيرات ذروتها عندما استهدفت منزل رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في حي قيسارية^(١).

ج. يتمتع أنصار الله الحوثية بما يشبه السيادة الكاملة في المناطق التي تهيمن عليها سياسيا وإداريا وعسكريا. خاصة أنه لا توجد قوة أخرى قادرة على الحد من هيمنتها، بعد الاتفاق الذي أوقف الحرب بينها وبين قوات التحالف العربي بقيادة السعودية، وبالتالي ليس هناك شك في أنهم يتصرفون باعتبارهم الممثل الحقيقي للدولة اليمنية. على الرغم من أن ممارساتهم الداخلية رسخت لهم صورة ذهنية بوصفهم مجرد ميليشيا مسلحة تحكم دولة. خاصة أنهم يمتلكون قدرات عسكرية كبيرة يعتمدون إلى إظهارها في استعراضات عسكرية متكررة. بعد أن سيطروا على قطاعات من ترسانة الجيش اليمني، وتمكنوا من تطوير قدرات أخرى.

وقد ظهرت قدرات أنصار الله العسكرية في اندلاع الصراع، في أكتوبر ٢٠٢٣ م، باستهداف الناقلات البحرية في عرض البحر وعلى مسافات كبيرة. ثم برزت قدرتها بصورة أكبر من خلال عملية خاصة تمكنت من الاستيلاء على سفينة "جالكسي ليدر" أواخر نوفمبر ٢٠٢٣ م^(٢) كما أظهر الحوثيون قدراتهم على امتلاك تكنولوجيا تصنيع المسيرات عندما استهدفوا ضواحي تل أبيب بهذه المسيرة، أوائل أكتوبر ٢٠٢٤ م، كما استهدفوها في منتصف الشهر ذاته بصاروخ باليستي^(٣). وتؤكد جملة هذه المعطيات أن الحوثيين يمتلكون قدرات عسكرية وتسليحية كبيرة، كما أن الطبيعة الطبوغرافية الوعرة الجبلية توفر لها حصونا طبيعية.

د. تمتلك الفصائل العراقية قدرة كبيرة على التأثير على صانع القرار في بغداد؛ نظرا لكونها تتمتع بنفوذ كبير في نظام سياسي يقوم على المحاصصة الطائفية بشكل رئيسي. وقد تم الاعتراف بكثير من الفصائل المسلحة العراقية باعتبارها مكونات رسمية في النظام العراقي منذ ضم قوات الحشد الشعبي إلى الجيش العراقي. يضاف إلى القدرات السياسية العديد من القدرات العسكرية التي أظهرتها الهجمات المتعددة للمليشيات العراقية على القواعد الأمريكية في العراق وسوريا والأردن أو حتى الهجمات على الداخل الإسرائيلي.

(١) فريق التحرير، "ما هي القدرات العسكرية لحزب الله وهل يستطيع أن يخوض حربا شاملة مع إسرائيل"، BBC NEWS عربي، ٢٠٢٤/٨/٢٥

(٢) فريق التحرير، "اقتياد جالكسي ليدر للحديدة وسفينتان تحولان مسارهما بالبحر الأحمر"، الجزيرة نت، ٢٠٢٣/١١/٢١

(٣) فريق التحرير، "الحوثيون: استهداف مواقع عسكرية إسرائيلية في تل أبيب"، الشرق الأوسط، ٢٠٢٤/١٠/١

٢. العوامل الخارجية:

تلعب عوامل الدعم والإسناد الخارجي دوراً محورياً في تمكين الفاعلين المسلحين من غير الدول من الاستمرار في أداء أدوارهم. وقد اختلف الباحثون في المدى الذي تتلقاه الفصائل من الدعم الخارجي. ويمكن أن يتوزع الدعم على ثلاثة أنماط: دعم عسكري ودعم تمويلي ودعم سياسي. وكما تتعدد أطرافه الإقليمية وربما الدولية. وتقف إيران باعتبارها الطرف الرئيسي في دعم الفصائل عسكرياً. وبينما يبدو من الصعب دعم الفصائل الفلسطينية بشكل كبير نظراً للتطويق الجغرافي الذي تفرضه قوات الاحتلال الإسرائيلي على قطاع غزة. إلا أنه من السهل دعم الفصائل والقوى الأخرى في الساحات اللبنانية والعراقية واليمنية. ويظهر هذا الدعم بشكل جلي في تكنولوجيات الصواريخ والمسيرات التي تستخدمها جميع الفصائل. وينبع هذا الدعم من التصور الإيراني بالتماهي بين أهداف هذه الفصائل والأهداف الاستراتيجية الإيرانية، التي جمعت الكل تحت مظلة حلف واحد يطلق عليه حلف المقاومة / الممانعة. وكان قد صرح وزير الخارجية الإيراني عباس عراقجي صراحة أن إيران سوف تدعم حزب الله ولن تقف مكتوفة الأيدي أمام الهجمات الإسرائيلية^(١). وقد أشارت التقارير الأمنية إلى حجم الدعم العسكري والفني، الذي تلقاه أنصار الله الحوثية من خبراء الحرس الثوري حزب الله اللبناني، مكثهم من تطوير ترسانتهم العسكرية، وصولاً إلى الصواريخ فرط صوتية. ثم بلغ الدعم العسكري الإيراني أقصى مدى له، حينما شنت إيران هجوماً جويين غير مسبوقين بالصواريخ والمسيرات حملاً شعار "الوعد الصادق ١ و٢" على الداخل الإسرائيلي^(٢).

ومن ناحية أخرى، تحاول إيران أن تمارس نوعاً من الدعم السياسي لهذه الفصائل. كذلك يقوم عدد من الدول الإقليمية بأدوار دعم سياسي تتفاوت من مستوى التمثيل السياسي في المفاوضات إلى محاولات دعوة مجلس الأمن للانعقاد، أو حتى رفع الدعاوى في محكمة العدل الدولية، لكن هذه المساعي السياسية قد لا تمثل دعماً للفصائل المقاتلة قدر ما تمثل دعماً لقضية الشعب الفلسطيني ومحاولة لوقف حرب الإبادة ضد المدنيين الفلسطينيين. وقد شاركت في هذه المساعي دولة جنوب إفريقيا وتركيا ودول عربية أخرى، أبرزها مساعي الوساطة والتفاوض المصرية والقطرية، خاصة أن الدوحة تستضيف وفود المكاتب السياسية للفصائل الفلسطينية

ثالثاً: أهداف وسياسات الفاعلين من غير الدول

تختلف الأهداف والوسائل باختلاف الفصيل أو الجماعة حيث لا يشترط أن يتحرك الجميع من ذات المنطلق. وفي هذا الإطار يتوزع الفاعلون المسلحون من غير الدول على نطاق ممتد بين متقابلين، فبينما يمكن ملاحظة تغليب مصالح الأطراف الكبرى في الحلف عند بعض الفصائل؛

^(١) فريق التحرير، "وزير خارجية إيران: وجودي في بيروت أثناء القصف دعماً لحزب الله"، Sky News عربي، ٢٠٢٤/١٠/٤.

^(٢) فريق التحرير، "الوعد الصادق: أول هجوم عسكري إيراني مباشر على إسرائيل"، الجزيرة نت، ٢٠٢٤/٤/١٤.

يلاحظ قدر أكبر من الحرية في اتخاذ القرارات المصرية لدى فصائل أخرى، وهو ما يوضح التنوع الكبير في مدى القرب أو البعد من القوة المركزية في الحلف. وبناء عليه يمكن دراسة الأهداف والوسائل للفاعلين المسلحين من غير الدول.

١. أهداف الفاعلين من غير الدول:

لا يمكن الادعاء بأن أهداف الفصائل جميعها متطابقة، إذ من الملاحظ التفاوت النسبي بين أجنادات الفاعلين المختلفين على الساحة الإقليمية وإن كانوا جميعاً ينتمون إلى محور واحد. فقد حددت الفصائل الفلسطينية أهدافها منذ اليوم الأول للمعركة باختيار الاسم الرمزي الذي أطلقتته شعاراً لها وهو "معركة طوفان الأقصى". التي انطلقت وفق رواية الفصائل الفلسطينية وعلى رأسها حركة حماس لعدة أهداف، أهمها الدفاع عن مقدسات المسلمين من خطر التهويد، وهو ما يضيف طابعاً عقائدياً على المعركة ويمتحنها بعداً أممياً. كما أشارت أثناء مراحل التفاوض المختلفة إلى هدف آخر هو تحرير الأسرى المحتجزين في السجون الإسرائيلية عبر المقايضة بالأسرى الإسرائيليين في غزة، وهو الهدف القادر على إظهار صبغة شرعية على المعركة التي شنتها الفصائل الفلسطينية يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ م، حيث أصبح السردية الفلسطينية أكثر عدالة وتماسكاً أمام الرأي العام العالمي والإقليمي^(١).

وعلى الرغم من أهمية الأهداف المذكورة إلا أنها جميعاً تبدو أهدافاً تكتيكية لخدمة هدف أكبر، فليس من المنطق أن تقدم الفصائل الفلسطينية على خطوة عالية التكلفة وموغلة في المغامرة بهذا الشكل بدوافع تكتيكية. ما يمكن رصده من تصريحات قادة الفصائل وممثلها ينبئ بهدف استراتيجي تشكل في وجدان هذه الفصائل، ورأوا ضرورة المغامرة لأجله مهما كانت التضحيات. وربما يتمثل الهدف الأكبر في إجهاد مساعي التطبيع في المنطقة العربية وإعادة القضية الفلسطينية إلى بؤرة الاهتمام على نحو يفوت على الحكومة الإسرائيلية فرصة صناعة حلمها الأكبر في التحول إلى كيان سياسي واقتصادي واجتماعي معترف به ومقبول في الإقليم كله على حساب طموحات الشعب الفلسطيني. وسواء تم الاتفاق حول صواب هذه الادعاءات من عدمه، فإنها تبقى هي المسوغات التي بنت عليها الفصائل سرديتها ومشروعيتها قرارها.

وعلى خلاف الفصائل الفلسطينية، يقف حزب الله حائراً بين توازنات صعبة ومعقدة ضيقة عليه خياراته وأبقتة عاجزاً عن حسم قراراته. على الرغم من التسويق الدائم لنفسه باعتباره حركة مقاومة، إلا أنه يبقى أكثر ارتباطاً بقواعد اللعبة السياسية الداخلية في لبنان وحسابات إيران الإقليمية. وهو ما ظهر بجلاء في تصريحات الأمين العام السابق للحزب حسن نصر الله الذي لطالما

(١) فريق التحرير، "هجوم حماس المباغت على إسرائيل ما الأهداف والحسابات"، DW، عربي، ١١/١٠/٢٠٢٤.

وازن بين خوض الحزب عملياته العسكرية ضد إسرائيل، ضمن ما أسماه جبهة الإسناد جنباً إلى جنب مع وضع التوازن الداخلي لبلبنان في الاعتبار. ومحاولة تجنب الداخل اللبناني تبعات خوضه معارك الإسناد. وفي سبيل الحفاظ على استقرار لبنان الهش بقيت قرارات الحزب أكثر حذراً وربما تردداً فيما يتعلق بضرورة الاشتباك مع إسرائيل. في إطار ارتباطه بالعامل الإقليمي المتمثل في التماهي مع أهداف إيران الاستراتيجية.

وعلى عكس الأطراف الأخرى تبقى أهداف أنصار الله الحوثية والفصائل العراقية غير واضحة بجلاء نظراً للبعد الجغرافي الذي يحول بينهم وبين التأثير المباشر بالصراع. يمكن إجمال أهداف الفصائل في اليمن والعراق بالهدف الاستراتيجي المتمثل في منع إسرائيل وحلفائها من الانفراد بأحد أطراف المحور دون الآخرين. كما قد يضاف إلى ذلك هدف عقائدي يرتبط بسردية هذه الفصائل الطائفية، باعتبارها جماعة عقائدية وهو المشاركة في معركة الدفاع عن المقدسات "الإسلامية" بالإضافة إلى القتال دفاعاً عن الشعب الفلسطيني المحاصر في غزة. وهو هدف إعلامي يضيف نوعاً من الشرعية على الجماعة أمام أنصارها وحاضنتها وأمام الرأي العام العالمي والإقليمي.

٢. سياسات الفاعلين من غير الدول:

بينما تتفق جميع الفصائل على الإطار العام ممثلاً في حمل السلاح تطلق عليه "خيار المقاومة"، إلا أنها تتدرج في هذا الخيار تبعاً لسياسة كل فصيلة وأهدافه. كما أن المؤهلات الذاتية لكل فصيلة تحجم قدرته على التماهي في سياساته. ويمثل الموقع الجغرافي أحد أهم المقيدات الإضافية لأي من الفصائل حسب القرب أو البعد عن ساحة الصراع الرئيسية في أراضي فلسطين التاريخية. وبشكل عام يمكن إجمال الفصائل كافة في إطار تمييزي يقوم على التدرج في شدة التمسك بالخيار العسكري ومدى التماهي فيه.

لا يخفى على أحد كون الفصائل الفلسطينية قد اتخذت قراراً موعلاً في الحدية/ يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م، بحيث بات من العسير عليها التراجع عنه، أو التخفيف من تبعاته. خاصة أن هذا الهجوم كتن واحد من أخطر الضربات الفلسطينية التي تعرضت لها إسرائيل في تاريخها إن لم يكن الأخطر على الإطلاق. وهو ما أشار إليه رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في أكثر من مناسبة. ويمكن تلمس ملامح سياسة الفصائل الفلسطينية عبر دراسة هذا القرار الموعل في الخطورة. إذ يبدو جلياً أنها كانت قد عقدت العزم على خوض غمار معركة صفرية ضد إسرائيل، تقوم فيها بنزع ما تراه أهم مزايا إسرائيل ومغرياتها وهي "الهيبة العسكرية". وتقوم سرديّة الفصائل على افتراض أن الأداة الأهم التي مكنت إسرائيل من تثبيت أقدامها في الإقليم وإغراء دول أخرى بالتطبيع معها هي القوة العسكرية والتقدم الاقتصادي والتكنولوجي. من هذا المنطلق أصبح هجوم السابع من أكتوبر يمثل الضربة القاسمة لهذه الهيبة وبالتالي لمشروعها ككل.

لقد كان قرار الهجوم على إسرائيل وما تبعه من استمرار لما يشبه حرب الاستنزاف وتكتيكات حرب العصابات والرفض القاطع لفكرة الاستسلام والتخلي عن السلاح التي تتمسك بها إسرائيل شرطاً مركزياً لوقف الحرب على القطاع، كل ذلك مثل استراتيجية للفصائل تشبه المقامرة على كل شيء أو لا شيء. وبذلك تصنع الفصائل الفلسطينية ما يشبه سيناريو حافة الهاوية وتدفع الإقليم بكامله إليها. هذه السياسة الصفرية يمكن أن تؤهل الفصائل الفلسطينية -وفق سرديتها- إلى قطع الطريق على المساعي الإسرائيلية المستمرة التي تفضي في النهاية إلى الموت البطيء والهادئ للقضية الفلسطينية بالجملة، ويعزل عن أي أصداء إقليمية لهذا الموت. وعلى الرغم من الاختلاف حول مدى خطورة تلك المغامرة من الفصائل ومدى القدرة على تحمل كلفتها العالية؛ إلا أنه لا يمكن إنكار أنها أعادت القضية الفلسطينية إلى بؤرة الاهتمام الإقليمي وحتى العالمي.

على النقيض من ذلك، لا يبدو ملمح الخيار الصفري والسياسة الحدية بادياً على تكتيكات حزب الله اللبناني. إذ يبقى أكثر حذراً وتحفظاً في اشتباكات مع إسرائيل نتيجة لارتباطه بتفاعلات الداخل اللبناني المعقدة والهشة، وربما أيضاً لارتباطه بحسابات الحليف الإيراني. وهو ما بدى واضحاً في التسمية التي لطالما ذكرها الأمين العام السابق للحزب حسن نصر الله واصفاً سياسته بجهة الإسناد. بمعنى قيام الحزب بدور المشاغلة والتشغيب على حدود إسرائيل الشمالية لإبقاء جيشها مشغولاً ومشتتاً؛ ولتخفيف الضغط عن جبهة غزة لا أكثر.^(١) وقد أصر الحزب على اتباع ما أسماها قواعد الاشتباك، التي تفضي إلى التصعيد التدريجي والبطيء في مقابل التصعيد الإسرائيلي. غير أن قواعد الاشتباك تعرضت لهزة خطيرة حينما أقدمت إسرائيل على اغتيال كبار قادة الحزب وعلى رأسهم عماد شكر قائد قوة الرضوان والتي تعد القوة البرية الضاربة للحزب، وتبع ذلك إقدامها على تفجيرات أجهزة الاتصالات اللاسلكية والنداء الآلي "البيجرز".

على الرغم من قوة الضربات التي تلقاها حزب الله، إلا أنه لم يستطع مواجهتها بالردود المتناسبة، وربما كان ذلك استجابة للنصائح الإيرانية التي تلقفت إشارات من الولايات المتحدة بأنه في حالة عدم الرد على الضربات الإسرائيلية المتمثلة في اغتيال إسماعيل هنية داخل إيران، وتفجيرات لبنان، فإنه يمكن للإسرائيليين أن يكتفوا بهذه المكاسب ويبدؤوا في خفض سقف أهدافهم، ما قد يؤدي في النهاية إلى الوصول لتفاوض جاد ومثمر يفضي إلى وقف إطلاق النار. غير أن اغتيال نصر الله وخليفته صفي الدين مثل ضربة قاصمة لسياسات الحزب القائمة على الحذر والتردد.^(٢) مما دفع بالحزب إلى التصعيد لمحاولة استعادة التوازن وإفساد نشوة الإسرائيليين بما حققوه. وكان

(١) فريق التحرير، "جبهة الإسناد ستستمر، نصر الله يتوعد بحساب عسير"، التلفزيون العربي، ٢٠٢٤/٩/١٩.

(٢) فريق التحرير، "كيف اغتالت إسرائيل الأمين العام لحزب الله"، BBC عربي، ٢٠٢٤/١٠/١.

استهداف ميناء حيفا المتكرر واستهداف العمق الإسرائيلي وصولاً إلى منزل رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في قيسارية ذروة هذا التصعيد.

ومن ناحية أخرى، كانت سياسة أنصار الله الحوثية تجاه الصراع حاسمة منذ اليوم الأول عبر سلسلة من الضربات البحرية على السفن المتجهة لإسرائيل. تخلل الصراع عمليات نوعية تمثلت في الاستيلاء على السفينة "جالكسي ليدر" وطاقتها، وضرب العمق الإسرائيلي بصواريخ فرط الصوتية وبالمسيرات عدة مرات. وربما تبرر هذه الجرأة المثيرة في سياسات أنصار الحوثية البعد الأمن النسبي الذي تتمتع به هذه الجماعة البعيد نسبياً عن أيدي الإسرائيليين وحلفائهم، والحصانة التي توفرها لهم طبيعة اليمن الجبلية. بينما بقيت سياسات الفصائل العراقية محدودة التأثير مقارنة بالفصائل الأخرى. وقد يرجع ذلك إلى محدودية قدراتها من ناحية، وإلى التماهي الكبير مع الحسابات الإيرانية من ناحية أخرى.

رابعاً: رؤية استشرافية

تظل محاولة التنبؤ بمستقبل الفاعلين المسلحين من غير الدول في إقليم الشرق الأوسط معقدة؛ نظراً لتعدد الفصائل واختلاف السياقات بينها. بالإضافة إلى تعدد العوامل المؤثرة على الظاهرة. فبينما تسهم العوامل الذاتية لكل فصيلة جنباً إلى جنب مع العوامل الإقليمية، لا يمكن كذلك إغفال المؤثرات الدولية، والتي تمثل الانتخابات الأمريكية المزعم إجراؤها بعد ساعات، أحدها. وعلى الرغم من الاختلافات الحدية بين كلا المرشحين للرئاسة الأمريكية، إلا أن كليهما متفق على دعم إسرائيل ولو بدرجات متفاوتة. على الرغم من الصعوبات يمكن محاولة تلمس الملامح العامة للسيناريوهات المتوقعة، التي قد تؤول إليها هذه الظاهرة في المديات المستقبلية المختلفة.

١. سيناريو الانكماش والتلاشي:

نتيجة للصراع المحتدم بضرارة، قد لا تتمكن الفصائل المختلفة من الصمود تحت وطأة الضربات الإسرائيلية. وإذا تمكنت الحكومة الإسرائيلية من الوصول إلى صيغة تفاهم مع إيران بوصفها القوة المحركة لمحور المقاومة، كأن نحصل على حرية أوسع على الساحتين العراقية والسورية الأكثر أهمية لها، مقابل تخليها عن الساحتين اللبنانية والفلسطينية أو تقديم تنازلات فيهما، فقد يؤدي ذلك إلى تخلي إيران تدريجياً عن الفصائل الفلسطينية وإلى حد ما اللبنانية خاصة إذا ما تم إغراء طهران برفع العقوبات الاقتصادية وإعادة دمج اقتصادها في المنظومة العالمية. ويحظى هذا السيناريو ببعض الوجاهة حيث تبقى إيران قوة إقليمية ذات مصالح استراتيجية وضغوط داخلية تجعلها تنظر إلى الفصائل المختلفة باعتبارها أدوات لتحقيق أهدافها الاستراتيجية العليا، فإذا ما حصلت إيران على الأثمان المناسبة قد تتخلى عن هذه الأدوات، خاصة مع ارتفاع كلفة المحافظة عليها وخطورة الانزلاق إلى حرب إقليمية مدمرة لكل الأطراف.

٢. سيناريو الازدهار والتمدد:

على النقيض من السيناريو الأول، فقد تكون إسرائيل هي الطرف الأكثر عجزاً عن الاستمرار في معركة النفس الطويل. ويعزز هذه الفرضية التاريخ الإسرائيلي ذاته الذي يشي بأن مراهنة إسرائيل كانت دائماً على الحروب السريعة والخاطفة كما فعلت عام ١٩٦٧م، بينما تمنى إسرائيل بالخسائر وتقدم التنازلات في حالة الحروب الطويلة والممتدة كما حدث لها عام ١٩٧٣م، يضاف إلى ذلك إدراك إيران أن دعمها للفصائل، لا سيما حزب الله هو الورقة الراحلة للضغط على الإسرائيليين ومن ورائهم الأمريكيين، ما يعني صعوبة التخلي عن مثل هذا الكنز الاستراتيجي. وإذا تمكنت الفصائل المختلفة في لبنان وغزة من الصمود والاستمرار بعد الحرب وحافظت على وجودها مهما كانت فداحة الخسائر فإن ذلك في حد ذاته يعد انتصاراً. أما إذا قبلت إسرائيل بما حققته واضطرت في النهاية لإنهاء الحرب عبر المفاوضات؛ ففي هذه الحالة تخرج الفصائل أقوى وتحوز الشرعية والشعبية بين صفوف الشعب الفلسطيني والجماهير في العالم العربي وتعيد ترميم قواها المادية مع الوقت.

٣. سيناريو الانفلات الجامح:

هو السيناريو الأكثر سوداوية، ولكنه يبقى أحد السيناريوهات المحتملة. فإذا أصرت الحكومة الإسرائيلية على الاستمرار في رفع سقف مطالبها، واستمر رئيس الوزراء الإسرائيلي بالمماطلة وعدم الجدية في المفاوضات، كما تهمة المعارضة، وتمسكت الفصائل المسلحة بأجندتها، فإن ذلك قد يؤدي إلى خطأ في الحسابات، ينزلق الإقليم على إثره إلى صراع شامل. ويعضد هذا الاحتمال سياسة الهروب للإمام التي اعتادت الحكومة الإسرائيلية على ممارستها كلما تعثرت في تحقيق أهدافها المعلنة في أي من الجبهات عبر فتح جبهة جديدة. ومثل هذا السيناريو قد لا يؤدي فقط إلى تحطيم غالبية الفصائل المسلحة، ولكنه ربما يؤدي أيضاً إلى تهديد إسرائيل وجودياً وتغيير خريطة الشرق الأوسط إلى الأبد. ويعزز هذا الافتراض ما قد يتلقاه نتنياهو من دعم؛ إذا وصلت إدارة أمريكية جديدة إلى البيت الأبيض تتماهى معه في وطموحاته. وعندما سوف تكون بعض من دول الشرق الأوسط عاجزة عن التماسك وقد تتعرض بعضها للانهيار الاقتصادي أو حتى التفكك الجيوسياسي، ما يعني ظهور مليشيات وفصائل مسلحة أخرى في خضم الفوضى العارمة.

على الرغم من سوداوية هذا السيناريو، إلا أنه يبدو الأكثر ترجيحاً. فقد تعلمت إيران من التجارب السابقة، أن الوعود الأمريكية والإسرائيلية يصعب الوثوق بها، وأن الحكومة الإسرائيلية كلما حققت إنجازاً لا تنجح إلى السلام، ولكنها على العكس تشجع للانخراط بشكل أكبر في الصراع. هذه العوامل سوف تمثل القوة الدافعة للطرف الإيراني للاستمرار في دعم حلفائه من الفصائل المسلحة ولو بحذر وعلى مضمض. يضاف إلى ذلك المساندة الروسية وما يشبه التحالف بين موسكو

وطهران، والذي يمثل قوة دافعة أخرى للإيرانيين للاستمرار في التحدي. قد يكون إغراق الولايات المتحدة في صراع معقد بالشرق الأوسط أسوأ أمانياً روسياً في ظل الحرب التي يخوضها الروس في باحثهم الخلفية على الأراضي الأوكرانية.

الخاتمة:

سوف تبقى ظاهرة الفاعلين المسلحين من غير الدول إحدى الظواهر ذات الاهتمام الكبير على الصعيد الإقليمي والعالمي. في ظل السيولة المعلوماتية وتصاعد الموجة الشعبوية في جميع أنحاء العالم، كما أن هذا النمط من الفاعلين من غير الدول سوف يستمر في الرواج والتمدد في العالم. وإقليم الشرق الأوسط ليس استثناء من هذا. يضاف إلى ذلك مؤثرات أخرى خاصة بالشرق الأوسط أهمها وجود عدد من الدول الهشة وربما الفاشلة أيضاً، وهو ما يحدث فراغاً يساعد على انتشار الفاعلين المسلحين من غير الدول. خاصة إذا قدمت القوى الكبرى دعماً لمثل هذا النوع من الفاعلين. بعض هذه القوى صنعت بنفسها شركات أمنية وميليشيات مسلحة لخدمة أهدافها ومصالحها. كل ذلك يصب في ترسيخ واقع واحد يشي بمزيد من النفوذ والتأثير للفاعلين المسلحين من غير الدول في المستقبل، وهو ما يستوجب على الدول معالجة هذه الظاهرة، أو استغلالها والتكيف معها.

كما يقتضي من الدول في الإقليم أن تبدأ في التفكير ملياً في إقامة نوع من العلاقات مع الفاعلين المسلحين من غير الدول، أو فتح قنوات اتصال معهم بهدف إيجاد وسيلة يمكن بها التحكم في سياساتهم، أو على الأقل تجنب أخطارهم. كما يمكن البدء في استنساخ التجربة وإنشاء فصائل موالية لتنفيذ أجندة الدولة أو مجابهة الفصائل المهددة لمصالحها. فالفاعلون المسلحون من غير الدول يبقون، على الرغم من كل الاعتبارات، سلاحاً ذو حدين، تارة يمكن استخدامه وتحقيق المنفعة منه، وتارة أخرى يتحول إلى خطر وتهديد يحقق بأمن الدولة واستقرارها.

قائمة المراجع:

١. إبراهيم، حسنين توفيق: الفاعلون المسلحون من غير الدول: الوضع الراهن وآفاق المستقبل، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، آفاق استراتيجية، عدد ٤، ص ٦١-٦٧
٢. عودة، جهاد عبد الملك وآخرون: الفواعل العنيفة من غير الدول: رؤية استطلاعية، المجلة العلمية للبحوث والدراسات التجارية، مجلد ٣١، عدد ٤، ص ٥٥٩-٥٧٥
٣. الشريف، عبد الله عيسى: تأثير الفاعلين المسلحين من غير الدول على الاستقرار السياسي: حزب الله نموذجا، المجلة العلمية لكلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية بجامعة الاسكندرية، مجلد ٨، عدد ١٥، ص ٦١٩-٦٥٨
٤. شريف، شيرين: ما هي أسلحة حماس الجديدة التي تمكّنها من المواجهة حتى الآن"، BBC NEWS عربي، ٢٠٢٣/١٢/٢٢
1. Knights, Michael, "The Houthis Takeover of Yemen is 10 years old", The Washington Institute, sept 21, 2024
2. Klippenstein, Ken, "American Base In Jordan Where Drone Killed 3 U.S. Troops", The Intercept, Feb 6, 2024
3. Emanuele Ottolenghi, "How Hezbollah Fundraises Through Crime", Foundation for Defense of Democracies, Jul 2, 2024